جون ميلتون

والفردوس المفقود

obeikan.com

عاش ستة وستين عاماً.. لكنه فى عامه السادس والأربعين بدأت علامات كف البصر تظهر فى عينيه.. إذ ضعفت عينه اليسرى.. وصحب ذلك اضطراب فى الهضم.. وأخلد إلى السكينة بعض الوقت.. ثم بدأ الظلام يزحف أيضا إلى عينه اليمني.. حتى كف بصره تماماً.

والغريب أن ميلتون قد كتب أعظم أعماله الأدبية: الفردوس المفقود – واستعادة الفردوس.. بعد أن كف بصره تماماً.. وهذه الأعمال مستلهمة من قصة المعراج النبوي.. لكن بفكر خاص لكاتبها الإنجليزي..

ولد جون ميلتون بمدينة لندن فى التاسع من ديسمبر عام ١٦٠٨ وكان والده محرر عقود رسمية ميسور الحال.. له نصيب من الثقافة.. وأمه سيدة طيبة حسنة الأخلاق اسمها سارة.

وكانت تحيط بالطفل أجواء الترف والثقافة.. فهو يسمع بأسماء كتاب ومفكرين كبار مثل: جونسون – وبيكون – وشكسبير.. وغيرهم.. وكان أبوه أيضاً يكتب الأناشيد يترنم الصغير بها ويعزفها على آلة البيانو.

ويتلقى جون دراسته الأولية بمدرسة القديس بولس.. وظهرت عليه ملامح الذكاء والفهم.

وفى عام ١٦٣٢م نزح جون إلى قرية هورتون بالقرب من وندسور وكان له بالجامعة أصدقاء مريدون.. يحبون صحبته.. والاستماع إلى أفكاره وآرائه.. وبعد ستة أعوام

قضاها فى الجامعة دارساً.. قام برحلة إلى القارة الأوربية.. وانتهي به المطاف إلى إيطاليا حيث زار هناك معاهد العلم والدراسة بحثاً عن المعرفة.

وفى إيطاليا زار العالم الكبير جاليليو فى داره..

ثم يعود جون إلى لندن بعد أن أشبع وجدانه بكثير من المعرفة فقد كانت انجلترا تغلي بالأحداث السياسية.. ووجد نفسه غارقاً فى هذه الأحداث.. فكتب عام ١٦٤١م رسالة شديدة الصراحة بعنوان (الإصلاح فى إنجلترا والأسباب التى وقفت فى طريقه) ثم وجد نفسه قادراً على التعبير بأقذع العبارات باللغة اللاتينية أيضاً.

وأصبح جون بذلك فى بؤرة الصراع السياسي.. وظل يحارب الفساد فى الدولة وفى الكنيسة.

وفى الرابعة والثلاثين من عمره.. تزوج جون ميلتون بفتاة فى السابعة عشرة من عمرها تدعي ماري باول.. ولكن سرعان ما عادت إلى دار أبيها مما دعا ميلتون إلى نشر رسالة واقعية مريرة بعنوان (القاعدة والنظام فى الطلاق) قوبلت بعاصفة من الاحتجاج من رجال الدين وغيرهم.. وأخذ ميلتون يدافع عن أرائه وأفكاره.. ويتلقي التهديدات بالقتل..

وفى يناير ١٦٤٩م كانت إنجلترا تغلي بالمناقشات الحامية حول محاكمة شارل الأول وإعدامه.. فنشر ميلتون رسالة بعنوان (حق الملوك والحكام)أيد فيها حق الشعب

فـى إعـدام الملـك الخائـن.. ويصـاب ميلتـون بكـف البصـر.. وكانـت شـفافتين لم يفسـر لونهمـا كـف البصـر.

ويعـبر جـون ميلتون عن هذه المحنة فى أشـعاره حين يقول:

عندما كنت أشكو ثقل المرض

وأحذر فقد عيني الباقية

وعندما قرر الأطباء أن انهماكي فى العمل

سوف يقضي على بصري نهائياً

فإنني لم أفزع مطلقاً.. وظللت صامداً فى موقفي

لم تهن لي عزيمة..

ولم يكن أمامي سوى أحد أمرين:

إما فقد البصر..

وإما الفرار من الواجب..

وكان على أن اختار ففضلت بصري

أما الظلام الذى أحاط بي فلم يحجب عني

سوى ألوان الأشياء.

وأشكالها..

وأتاح لي أن أتأمل فى حرية

جمال الفضيلة والحق.

obeikandi.com

ويكتب ميلتون ملاحمه الكبيرة: الفردوس المفقود – استعادة الفردوس – شامشون أجونيستيس.. وكذا المقطوعتين التاسعة عشرة والثالثة والعشرين.. وكذا يخاطب فى الأخيرة أحد أصدقائه التجار ويسمى سيرياك سنكد..

وينتقل جون مع أسرته إلى كوخ صغير فى قرية صغيرة.. يملي على فتي مخلص أعماله الكبيرة أحياناً.. وعلى ابنتيه أحياناً أخرى.

ويعد النقاد – الفردوس المفقود – من روائع الآثار الأدبية ويقارنون بينه وبين هوميروس وفرجيل وغيرهما.

وظل ميلتون فى الخمسة عشر عاماً الأخيرة من عمره.. يخرج طاقاته الخلاقة التى أثمرت أعظم أعماله.. متحدياً بذلك فقد بصره.. ويكفي أن تعرف أن ميلتون لم يكتف بالتزود من المعرفة فقط.. وإنما أجاد ثماني لغات.. العبرية – السريانية – اليونانية – اللاتينية – الإيطالية – الإسبانية – الفرنسية.. إلى جانب لغته الإنجليزية.

وقد اعتقل ميلتون حيناً من الزمن.. وتزوج بعد أربع سنوات من وفاة زوجته.. وماتت زوجته الجديدة فى الشهر الثانى عشر من زواجه.. فتزوج للمرة الثالثة فى عام ١٦٦٤م.. ولم تكن حياته العائلية سعيدة نظراً لالتزامه الجد الصارم وافتقاده روح الفكاهة وانكبابه الدائم على العمل والدراسة..

ولا شك أن هذه المحن جميعاً.. إلى جانب فقد بصره.. كانت تولد فى داخله إحساساً بضرورة سبق الزمن.. لكى ينجز فيه ما أراد أن يخرجه للناس.

ويظل جون ميلتون مثلاً للمفكر والمبدع الخلاق.. وستظل أعماله شهادة على عبقريته.

obeikandl.com